وصيَّة عبد الملك بن صالح لابنهِ قبل وفاتهِ

توطئة

بين مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة كرّاس صغير وقفنا عليهِ في بعض مكاتب دمشق وهو مخطوط بقلم نسخي متقن مُخلل من التاريخ لا تربي صفحاتهُ على ١٧ صفحة عنوانهُ «وصيَّة عبد الملك بن صالح لابنهِ قبل وفاتهِ». راجعناهُ فاذا هو يحتوي على مجموعة حكم من اجود ما يوصي بهِ ابٌ رشيد ابنهُ النجيب. ولمَّا كان هذا الاثر الجميل مجهولاً على ما نظنّ احببنا نشرهُ في المشرق حفظاً لهُ من الضياع

ومما يزيد هذا الاثر قيمةً انهُ لرجل من مشاهير العبَّاسيين الذي ابقى لهُ ذكرًا في عالم السياسة والادب اعني بهِ الامير ابا عبد الرحمان عبد الملك بن صالح بن علي بن عبدالله بن عبَّاس الذي وُلّي المدينة ومصر ودمشق في ايَّام هارون الرشيد. ثم ولّاهُ ابنهُ الخليفة الامين الشام والجزيرة فمات قبل خلافة المأمون سنة ١٩٦ه (٨١٠م) وكان عبد الملك شريفاً نبيلاً بليغًا. قال محمّد بن شاكر الكتبي في فوات الوفيات (٢ : ١٢) : «كان عبد الملك بن صالح أفصح الناس وأخطبهم ولم يكن في عصره مثلهُ في فصاحتهِ وصياغتهِ وجلالتهِ» ل. ش

وصيته

اوصى بها الامير عبد الملك بن صالح ولده حين ادركته الوفاة

(قال) يا بُني احلُمْ فانمن حَلُمَ سادَ، ومن تفهَّم ازداد. وألِفَ اهلَ الخير فانهم عمارةُ القلوب. واعلم انَّ الصبر على المكروه يعظِّم الاجر. وحسن التدبير مع الكفاية خير من التكبّر في الإسراف. ولا تغرَّنَّك صحَّة نفسك، وسلامة أمسك. فمدَّة العمر قليلة، وصحَّة النفس مستحيلة. ومن أطاع هواه، باع دينه بدنياه. ونصرةُ الحق شرف، ونصرة الباطل سَرَف. اياك وفضول الكلام فانهُ يظهر من عيبك ما بطن، ويجرّك من عدوك ما سكن. كلام المرء بيان فضلهِ، وترجمان عقله. وكل امرئ يُعرَف بقوله، ويوصف بفعله. فقل سديدًا، وافعل حميدًا. وكن صموتاً وصدوقاً فالصمت حرز، والصدق عزّ. وما عزَّ من ذلَّ جيرانُهُ، ولا سعد من أحرم

اخوانه . واجلُ النوال ، ما وصل قبل السؤال . واذا صنعتَ المعروف فاستره ، واذا اصطُنع اليك فانشره . ومن منَّ بمعروفه سقط شكره ، ومن أعجب بعمله حبط اجره . ومن ساء خلقه ، ضاق رزقه . ومن صدق في مقاله ، زاد في جماله . ودع عنك طول الجدال ، وفضول المقال ، وشدة اللجاج ، وكثرة الحجاج ، وقصر من كلامك ما طال . وطوّل الوعيد ، وكثّر التهديد ، فان ذلك يُظهر من ابنائك ما بطن ، ويحرّك من اعدائك ما سكن

وعليك بشدة الحزم ، وقوة العزم ، وحسن التدبير ، وصدق التشمير . واياك والكسل فانّ الراحة تجذب التعب ، وتورث العطب . ولا تمدحنَّ نفسك وان اتقنتَ كمالك ، وصدقت مقالك ، فمن مدح نفسهُ هجا عقلهُ ، ونفى فضلهُ . واذا طلبت الفخر والعلاء فاركب عظائم الاهوال ، وابذل كرائم الاموال . ولا تهولنَّك حالة ، ولا تغرُرك ملالة . وعليك بطول الجد والتشمير وحسن القول والفعل وحفظ اللسان فالملك يزول بطاعة الهوى ويدوم بصحة الرأي والتدبير . والرأي يصحبك ما دام بقاؤك ، والرجال تخدمك ما دام عطاؤك ، وعُذرك لا يُقبل بلسانك ، ما لم تعتقده بإحسانك . فالردُّ الجميل ، احسن من الوعد الطويل . وردٌّ يريح خيرٌ من وعد يكدّ

ولا تُجب الجاهل على قوله ، ولا تعاتبه على فعله فانك ان اجبته عنه او عاتبته عليه اسقط ما بقي من الحشمة ، وقطع ما اتصل من التعمة . فبالغ في الجفا واعرض في الاخفا . وحسن المقال يكسبك صدق المحبة . وطول الاحتمال يؤمنك السوء . ويجب على العاقل ان يخاطب الجاهل كمخاطبة الطبيب المريض . واياك والباطل فانه يحطّ قدرك ويضعف امرك

واعلم ان قولك ترجمان عقلك ، وفعلك برهان اصلك وفضلك . واذا كلمك سفيه بما يغمُّك فامسك عن جوابه ، واعرض عن عتابه فان الدنيا بما فيها حلم حالم ، ورؤية نائم . تفنى ايامها وتبقى آثامها ويزول نعيمها

وقع بمدينة بقراط الحكيم رهجٌ كبير فلم يكترث لذلك فقيل له : أما يهمك ما ترى من هذه الحال ؟ قال : لا . قيل : ولِمَ ؟ قال : لاني لو رأيت ذلك في المنام لم اتحرّك في اليقظة وكذلك لا يحركني هذا الذي رأيته اذا رجعتُ الى همة الرأي لان امور العالم كلها كالحلم وصحة الرأي كاليقظة . ولا يزّلنك من عدوك لينُ مقاله ،

وحسن اقباله . فانَّ لينه مكرٌ دنيءٌ وكيدٌ متين . ولو انكرت من صديقك حالًا ، او كرهت منه مقالًا ، فلا يحملنك ذلك على قبيح الاجابة واعتقاد العداوة فربما خطأهُ على ذلك حالٌ اكرههُ منك او قول بلغه عنك . فاسئله عن السبب فلعلَّه يخبرك بما يلزمك الحجة ويوجب عليك العذر فهو يظهر لك عدوك فيكون ذلك شفقة عليك فتعلم امره وتحترز شره

واجعل كلامك على قدر طولك وحزْبك على قدر قوتك فمن حمل نفسه ما لا تطيقه من الكُلَف ، عرضها للحشية والتلف . فان من اتكل على قوته حمله ذلك ان يسلك الطريق المخوف ومن سلك الطريق المخوف فقد سعى في حتفه . ومن لا يقدر على طعامه وشرابه وحمل نفسه ما لا تحمله وتطيقه فقد قتل نفسه . وعليك بلطف المقال ، وكرم الفعال ، وحسن الخدمة ، وشكر النعمة وترك الغيبة ، ومجانبة الريبة . وشرُّ المال مال لا يُنفَق منه وشر الاخوان من لا يُنتفَع به . واذا أسأت فاعتذر ، واذا قدرت فاغتفر . فالاعتذار يزيل الوحشة والاغتفار يديم القدرة فما اذنَبَ من اظهر الندامة ، ولا غفرَ من اكثر الملامة . وان ذا الاصل لاتبطره منزلة اصابها ولا شرف نالهُ وان عظم ، والسخيف تبطره اجلال منزلته كالحشيش تحركه ادنى الرياح . وكريم الاصل يترفع عن سوء الخلق ومن هان عليهِ المال ، توجهت اليهِ الآمال . ومن جاد بماله جلَّ ، ومن جاد بعرضه ذلَّ . وافضل المعروف ، إغاثة الملهوف . ومن تمام المعروف ان تنسى الحق لك وتذكر الحق عليك وتستكثر الاساءة منك وتستصغر الاساءة عليك

وشر الناس مَن نصر الظالم وخذل المظلوم ومن لا يرحم العبد سُلب الرحمة . ومن قال ما لا ينبغي ، سمع ما لا يشتهي . واياك والبغي فانه يصرع الرجال ، ويقطع الآجال . ومن لازم الرقاد ، حُرم المراد . ومن دام كسلهُ ، خاب املهُ . والعجول مخطئ ولو ملك . ومن ركب الجهل ادرك الزلل . ومن خاف سطوتك غنَّى بموتك . ومن ادَّبَ اولاده ، أرغم حسَّاده

واعلم ان الحكمة لا تتم في احد حتى يكون مقدَّماً في ثلاث ومؤخرًا في ثلاث ومبرأً من ثلاث ومؤهلًا لثلاث . فالاول الذي يكون مقدماً فيها فالعقل والتعلق والحلم . واما الذي يكون مؤخرًا عنها فالحدَّة واللجاجة والعجلة . واما الذي يكون مبرَّأً عنها فالهوى والحسد والكذب . واما الذي يكون مؤهلًا لها

فالرفق والصمت والصبر . فعليك بالصدق في مقالك ، والرفق في افعالك ، فالصدق حلية اللسان . والرفق ما دخل في شيء الّا وزانه ، ولا خرج من شيء الّا وشانه . واقل الكلام ، يكفّ الملام . ومن حسن خلقه ، ولطف نطقه ، وقصر لسانه ، وكثر احسانه ، سوّدهُ قومهُ واسعده يومه ، لان حسن الخُلق يورث محبة الخَلق وبكثرة البِرّ تُستعبد الاحرار فاستعبد الاحرار بالبرّ

واذا تكلمت فأذِلّ الجواب ، واذا اجبت فاقصد الصواب . وقلة الكلام تورث السلامة ، وقلة السؤال تورث الكرامة . والنفس الذليلة لا تجد ألم الهوان والنفس الشريفة يؤثر فيها يسير الكلام . ولا تأمن الشرير الذي جُبل على الشر وطُبع على التغيير وان طالت سلامتك معه وكثرت استقامتك منه فانه يتغيّر عن حاله ، ويأتي بمكره واحتياله ، كالعقربة لا تتغيّر عن طبعها ولا تصبر عن لدغها وإن بالغتَ بالذبّ عنها . واذا استشرتَ الجاهل ، اختار لك الباطل . ولا تشكون ضعفك الى عدوك فانه يشمت بك وتطمعه فيك ولا تفتح باباً يعييك سدّه ، ولا ترم سهماً يعجزك ردّهُ . وسوء التدبير ، سبب التدمير . والجوع ، خير من الخضوع . والكذوب متّهم وان صدقت لهجته ووضحت حجتهُ . ومن عُرف بشيء نُسب اليهِ وعند الجدال يظهر فضل الرجال . ومودة في دولة وعز ، خير من حياة في ذلّ وعجز . وربما اصاب الاعمى رشده واخطأ البصير قصده . ولا تردنّ على ذي خطأ خطأه فيستفيد من علمك ويتخذك عدوًّا

والمنفعة توجب المحبة والمضرة توجب البغضة . والمخالفة توجب المدارة والعدل يوجب اجتماع القلوب . والجور يوجب الفرقة والتكبر يوجب المقت . والتواضع يوجب الرفعة والجود يوجب الحمد . والبخل يوجب الذم والتواني يوجب التضييع . والحذر يوجب السلامة . وبالتأني تسهُل المطالب وبحسن المداراة تدوم المودة . وببسطة خلق المرء يطيب عيشه . وبكثرة الصمت تكون الهيبة . ربَّ اخٍ لك لم تلده امك . ورب طمع ادّى الى عطب وطاعة النساء ندامة

ومن عقل المرء مروّته ودلائل فضله ان يتقي الله في فعله ويراقبه في قوله فانه يراه ويسمع سرّهُ ونجواهُ . واياك وركوب الجهل وفضول القول وظلم الجار ، ومصاحبة الاشرار ، ومحاجّة الحكماء ، ومخالفة العلماء ، ومعاداة السلطان ، ومفاسدة الاخوان ، فمن ركب الجهل دامت سقطاته ومن ظلم الجار قصُر عمره ، ومن صاحب الاشرار

قبحُ ذكره ، ومن حاجَّ الحكماء بطل حجاجه ، ومن خالف العلماء ظهر اعوجاجه ، ومن عاند السلطان هُدر دمه ، ومن فاسد الاخوان طال ندمه

ولا تجالس السفهاء تكن قاضياً على نفسك بالسفاهة وراضياً بالذلة والهانة . فانمن جلس مجالسهم ورضي مذاهبهم عُدَّ منهم ونُسب اليهم . والسفيه اذا لعنَ من لا يظلمه انما يلعن نفسهُ فلعنتهُ تصعد الى السماء ثم ترجع اليهِ فلا تشاركهم في اللعنة ولا تتعرض بمجالستهم لسوء الظن . ومن حاسب نفسه فليس احد يحاسبه ، ومن عاتبها فليس احد يعاتبه . ومن لامها فليس احد يلومه ومن اكرهها فليس احد يهينهُ . وقِفْ عند كل امر قبل ان تباشرهُ حتى تعرف مدخله ومخرجه قبل ان تقع فيهِ فتندم

والقلوب مزارع فازرع بها الكلمة الطيبة فانها اذا لم تثبت كلها ثبت بعضها فان من الكلام ما هو ابيس من الحجر ، وانفذ من الإبر ، وامرُّ من الصبر ، واحرّ من الجمر . واذا اردت ان تحاجَّ فقدّم حجتك ، تصحح علتك . ومن خاصم بغير حجة او قاتل بغير عدة او صارع بغير قوة وقُتل فهو الذي قتل نفسه . ولا يحملنَّك سباب الجهول او جرأة السفيه عليك على اجابتهِ فحِلمٌ يُغني صبرك ، خير من سبٍّ يشفي صدرك . وحلم يضرُّ خير من سفه ينفع . وصدق يُمِرُّ خير من كذب يحلو . قرب لفظة سهلة تقولها لمرّاً وتحسبها لمرّاً ، وهي تلقيك وعرّاً وتواطيك جمرّاً . ومن اطلق طرفه ، طال اسفه . وان أردت ان تسلم عند سلطانك ، وتُكرم عند اخوانك ، فتعامَ عمَّا تراه من عيوبهم ، وتغافل عمَّا تعلم من ذنوبهم . وكفَّ عن ذكر مساويهم وان كثرت فالقليل من الحسنات يمحي عن كثير من السيئات . واعلم انك لا تسلم من عيب ولا تخلو من ذنب فاشتغل بما تراه فيك وتعامَ عمَّا تراه فيهم

لا تَنشُرَنَّ مساوي القوم ما ستروا فهتك الله ستراً من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ولا تَعِب احداً منهم بما فيكا

واعلم ان المرء يُكرم بعقله وادبه ، لا بماله ونسبه . والفضل في علمه وحكمته ، لا في وفره ونهمته ، والحكومة بين الاصدقاء تورث العداوة وهي بين الاعداء تورث الصداقة . ومن خبث اصله ، خبُث فعله . واذا همتَ بخير فبادر واجتهد ، واذا هممت بشر فسوف واتّئد . فالخير يشمر الخير والشر يشمر الشر . واذا جادات قرّغ قلبك

واجمع عقلك ولا تشطّ في جدالك، ولا تفرط في مقالك. وقلْ مستظهراً بالصواب، واسمع متهيّئاً للجواب. واياك والغضب فانهُ يقلل الهمم، ويقوّي الخصم. فاذا حاججت فلا تغضب فان الغضب يضعف قوتك، ويقطع حجتك. فسان اللسان يخطئ ورمي السهام يخطئ ويصيب. وجرح اللسان لا يبرأ وجمرة المحبة لا تُطفأ ونار الحقد لا تخمد، وعين العدو لا ترقد. فمن عادى الرجال عادَوه وان رماهم بسهم رموه والفاس تُقطَع بها الشجرة وتنبت والسيف يُقطع بهِ اللحم فيندمل واللسان لا يندمل جرحهُ ولا ينبت ما قطع

وسبعة لا تشاورهم: جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذو هوًى. فالجاهل يضلّ. والعدو يُريد الهلاك. والحسود يتمنى زوال النعم عنك. والمرائي واقف مع رضا الناس. والجبان دأبهُ الهرب. والبخيل حريص على المال. وذو الهوى اسير هواهُ لا يقدر على مخالفته. ومن اصفرّ لونه من النصيحة، اسودّ وجهه من الفضيحة. واذا وجدت حاجتك في السوق فلا تطلبها من عدوك ولا صديقك. ولا تعاند أحداً وان ظننت انه لا يضرّ ولا تزهد في صداقة احد وان ظننت انه لا ينفعك. فانك لا تعلم متى تخاف عداوة العدو ولا متى ترجو صداقة الصديق. واقبل عذر من اعتذر اليك ولو كان كاذباً. ومن سعى بالنميمة حَذِرَهُ البعيد ومقتَه القريب. فلا تحدّثْ من لا يُقبل بوجهه اليك. ولا تنصت لمن لا يُدمن كلامهُ اليك. والشهوة تورث الندامة. وفوت الفرصة تورث الحسرة. ولا تساعد النساء فيملكنّك وان اردت حسن العشرة. وألقَ عدوك وصديقك بوجه الرجا من غير ذل ولا رهبة. ومن نظر عيب نفسه استقلّ من عيب غيره. ومن رضي بما قسمه الله له لم يحزن على ما فات. ومن سلّ سيف البغي قُتل بهِ. ومن هتك ستر اخيهِ كُشفت عورة بنيه

ومن أعجب برأيهِ ضلّ، ومن استغنى بعقلهِ زلّ. ومن خالط الانذال احتُقر ومن دخل مداخل السوء اتُّهم. واعلم ان الغم الذي يُبرئ يجرح الجُرح الذي لا يندمل. اياك ان تطالب حاجتك من اللئيم. ولا تتعتب على الدهر فمن عتب على الدهر طال عناؤهُ. ومرُّ الكلام، اصعب من ضرب السهام. وبُعدٌ يورث الصفا، خير من قُرب يورث الجفا. وسوء الخُلق يوجب المباعدة

ولا تنظر في عطيتك ولا تُكثر الالتفات وتحفّظ من تشبيك اصابعك والعبثْ

بلحيتك وخاتمك وتخليل اسنانك وادخال اصبعك في انفك وكثرة بصاقك وتنخّمك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس . ولا تكثر الالتفات وليكن مجلسك عادياً وحديثك منظوماً مرتباً وأصغ الى الكلام الحسن ممّن يحدثك من غير تعجّب مفرط ولا تسئله اعادة ذلك . والعداوة والصداقة تتناوبان . زُر غبّاً تزدد حبّاً . الوحدة خير من جليس السوء . والسعيد من وُعظ بغيره والتمس الجار ، قبل شراء الدار ، والرفيق ، قبل الطريق ، واحسنْ اذا وليتَ واعفُ اذا ملكت

ومن كثُر كلامهُ كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه وكانت النار اولى به . ومن لم يشكر القليل لم يشكر الكثير . والبخل عار والكذب ذل . والغريب من ليس له حبيب . والمُقلّ غريب ولو كان في بلده . ورب ساعٍ فيما يضره . ودَع القول فيما لا تُكلَّفه

خف الله في سرّك ، يكفِكَ ما يضرُك . والوفا شريك الكرم . والمولى اذا كلّف عبده ما لا يطيقه فقد اقام عذرهُ في مخالفته . ما اكلتهُ راح ، وما أطعمته فاح . ومن ودّك لامرٍ أبغضك عند انقطاعه . ولا تأمن ممن كذب لك ان يكذب عليك . ولا من اغتاب عندك ان يغتابك عند غيرك . واذا وقعت المجادلة فالسكوت افضل من الكلام . بشّر مال البخيل بحادث او وارث . من طلب عزّاً بباطل اورثه ذلّاً يحق . خاطرٌ من ركب البحر واشدُّ مخاطرةً منهُ من صحب الملوك . وخير الكلام ما قلّ ودلّ . وقليلٌ دائم ولا كثير منقطع . استعينوا بقضاء الحوائج بكتمان السر

من آداب الجليس قلة الخلاف ، والمعاملة بالانصاف وترك الجواب ، على محسن الخطاب ، وستر العيوب ، وحفظ الغيب ، وان يحسن الحديث اذا حدّث ويلقي السمع اذا حُدّث . وفي بعض الحكم «الاستماعُ بالعين» فاذا رأيت من حُدّث محدقاً الى غيرك فأصرف حديثك الى غيره . واياك والمضاحكة ولا تتصنع كتصنع النساء في التزيين . ولا تلحّ في الحاجات . ولا تشجّع احدًا على الظلم . ولا تُعلم اهلك وولدك فضلًا عن غيرهم مقدارَ ما لك فانهم ان رأوه قليلًا حُنت عندهم وان وجدوهُ كثيرًا لم تبلغ رضاهم . ولا تمازح عبدك ولا امتك فيستخفّ وتارك قال :

من مازح الناس استخفّوا به واصبح نادمًا على مزحته

من لاطمَ الثبانَ في وكره هيهات ان يسلم من لدغته

من اظهر الناس على سرّه يسأهل الضرب على رقبته

والمزاح يخرق الهيبة ويذهب بماء الوجه ويُعقب الحقد ، ويُمرُّ حلاوة الود. ولا يقدر على خدمة الملوك الّا من استكمل خصالاً : لا يستقل ما حمّلوه ولا يبطر اذا اكرموه ولا يقتربهم اذا رضوا عنهُ ولا يتغير اذا سخطوا عليه ولا يرتعن اذا ملكوهُ ولا يخلف اذا سألوهُ . ومن استخف بالسلطان افسد دنياه . ومن استخفّ بالاخوان افسد مروّته . ومن لازم الملوك لا يفشين لهم سرًّا ولا يحرنّ لهم كذباً ولا يغتابن عندهم احداً . واياك والدخول بينهُ وبين بطانته فانك لا تدري ما يتغير منك فيكونون عوناً عليك . والملك يغضب كغضب الصبي ويرضى كرضى الصبي ويبطش كبطش الاسد . والملوك لا وفاء لهم ولا عهد . ولا يرغبون فيك الّا ليطمعوا فيما عندك فيضرّ ذلك عند ذلك فاذا قضوا حاجتهم منك تركوك ورفضوك

قيل مكتوب على باب قرية قريب من مدينة بلخ : من خدم ابواب الملوك يحتاج الى ثلاثة امور : عقل وصبر ومال . فكتب بعضهم : كذب الكاتب من كانت له واحدة من هذه الثلاث لا يقرب باب الملوك . لا تثق بالملك فانه ملول ولا بالدابّة فانها شَرُود ولا بالمرأة فانها خؤون

قد شرحت لك الوصية ونصحت لك النصيحة فاعمل بها ترشد وبالله التوفيق

جولة في كسروان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

من نسيبه الى عشقوت (تابع)

لقد تعب معنا القارئ اللبيب من تقليب صفحات الكتب الخطيّة وشعر بما عانينا من النصب في استقرائها ولاح لذهنه ما علق على ثيابنا من الغبار المدفونة تحت